

جرائم جنرالات فرنسا في الجزائر خلال فترة الحكم العسكري 1847- 1832

أ.ة: ليلى بلقاسم

جامعة وهران أحمد بن بلة 01

-تمهيد

تحولت عملية تأديب الداي حسين إلى تأديب شعب وأرض طيلة 132 سنة تمثلت في مختلف السياسات التي تجسدت في القتل الجماعي والابادة والحرق... في جرائم فاقت كل الأعراف والقوانين الدولية من تخطيط كبراء المنظرين من امثال بروسبير اونفونتان (1796-1864) والكسي توكوفيل (1805-1859) فسجل التاريخ صفحات مخزية في انحطاط إنساني لا أخلاقي كتبت بأقلام جلادي للاستعمار الفرنسي في حرب شاملة وإبادة وتهديم للمؤسسات الاقتصادية والتعليمية والدينية. وقد ركزت على الفترة الممتدة من 1830 إلى 1847 باعتبارها أخطر مرحلة مرت بها الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي نظرا للمجهود المادي والمعنوي الذي قامت به فرنسا لإرساء دعائم مستوطنة فرنسية ومشروع قائم على تغيير معالم الجغرافيا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا تماشيا مع الأسلوب العسكري المطبق ضد احمد باي في الشرق الجزائري ومقاومة الأمير عبد القادر في الغرب الجزائري، الأخيرة التي كادت أن تجهض المشروع الاستعماري وتفشله في الجزائر.

كانت السياسة الاستعمارية في الجزائر قائمة على إبادة الشعب واقتراف أبشع الجرائم وهي تأكيد لما حدث في مجازر 08 ماي 1945 والتي تعد استكمالا لما قبلها وبعدها لما بداه الأولون ولما اقترفه فيما بعد الآخرون من أمثال بيجار واوسايس وماس ووسالان وشال وزيلر وجوهان و... هم في النهاية أبناء وحفدة مونتينيكاك وبيج ووكافينيكاك وبيليسي وسانت آرن ووشانغارني. ممن قادوا أعمالا عسكرية استعمارية شكلت خطرا وجوديا على الشعب الجزائري من خلال عدة أساليب ومن ذلك الخنق بالدخان لأولئك الفارين بجلدتهم

شيوخا وأطفالا ونساء إلى الكهوف والمغارات المحارق التي لم تسلم منها حتى الحيوانات لينال الشعب الجزائري أكبر نصيب من البطش والظلم الاستعماريين.

وعليه سنحاول من خلال هذه الدراسة العمل على معالجة إشكالية تتمثل في ضبط أهم جرائم الجنرالات الفرنسيين في الجزائر في الفترة الممتدة بين 1847-1832 من خلال تصريحاتهم وكتاباتهم.

جرائم سجلها التاريخ في صفحاته المخزية تصنف ضمن البعد لا إنساني ولا أخلاقي خلدها كتاباتهم وتصريحاتهم تحت شعار "نشر المدنية" فما هو محتواها؟

كانت مجزرة العوفية بالقرب من واد الحراش في فترة الدوق روفيق وتعبير عن الهمجية بعد أن وجه الجنيرال فودواس Foudoas بتاريخ 1832-04-06 وتم مباغته القبيلة وإبادتها بتاريخ 1832-04-07 دون تفريق بين الكبير والصغير وبين الرجال والنساء وصودرت الأملاك وبيعت لممثل القنصلية الدانماركية والباقي عرض في سوق باب عزون "رأينا أساور النساء لا تزال تحيط بالمعاصم المقطوعة والأقراط المتدلية مع أشلاء من اللحم أما ثمن البيع فقد تم تقاسمه بين الذباحين في جدول أعمال 08 افريل⁰¹ وقدمت رأس زعيم قبيلة العوفية كهدية للدوق روفيقو⁰².

لقد عمد القادة العسكريون على تكريس فكرة القتل والتعذيب في الجندي الفرنسي وتجهيزه نفسيا للتنكيل بالجزائريين والهدف هو تحقيق البرامج التوسعية دون تكليف خزينة الدولة مصاريف مالية وقد برز هذا في تصريحات بيج و(1849-1784): "لابد من إبادة السكان العرب إن المجازر والحرائق وتخريب الفلاحة هي في تقديري الوسائل الوحيدة لتركيز هيمنتنا"⁰³.

بيج وصاحب سياسة الأرض المحروقة والذي صرح بمجرد وصوله للجزائر حيث مهد للاحتلال الشامل "أنَّ الحرب مستمرة إلى غاية الإبادة"⁰⁴.

وهذا من أجل إنهاء الشعب وتفقيره وتجويعه بهدف القضاء على مقاومة الأمير عبد القادر التي لا تتم إلا بالاستيلاء على مطامير القمح التي كانت تمون جيش الأمير، العمليات التي لا تتم إلا بحرق المحاصيل والبحث عن المطامير وإفراغها وتدمير الأكواخ والأشجار وقد جاء في خطابه: " لا يجب أن نجري وراء العرب بل يجب أن نمنعهم أن يبذروا أراضيهم أو أن يحصدوا محاصيلهم أو ويرعوا مواشيهم"⁰⁵. بل يصرح قائلاً: "محاربة السكان والقضاء عليهم أمر لا بد منهم لذا يجب تحطيم كل قبيلة وتدمير القرى وقطع الأشجار المثمرة وحرق المزروعات ونهب المطامير وأسر النساء والأطفال والشيوخ وسلب المواشي إنها الطريقة المثلى لإخضاعهم"⁰⁶.

وجاء بيج وبجيش قوامه 78 ألف جندي لمحاربة الجزائريين إلى أن بلغ مئة ألف جندي وهما يعادل ثلث الجيش الفرنسي"⁰⁷.

في الفترة الممتدة ما بين 1841-1847 قام الاستعمار الفرنسي بعدة عمليات إبادة في المناطق السهلية لاحتوائها على كميات كبيرة من القمح من ذلك محاصرة قبيلة الحشم بمعسكر ونهب محاصيلهم وتدمير مطاميرهم⁸.

فلقد تفنن الجنيرالات في الجرائم المرتكبة ضد الجزائريين وإحباط المقاومة التي تعتمد على القبائل والتعبئة الشعبية فكل كتابتهم تكشف ذلك فذا سانت آرنو- Armand Saint (1798-1854) يصرح بما اقترفته قبائل بني مناصر بناحية مليانة " لقد كانت حملتنا تدميراً أكثر منها عملاً عسكرياً ونحن اليوم وسط جبال مليانة لا نطلق الرصاص إلا قليلاً، ونقضي وقتنا في حرق جميع القرى والأكواخ"⁰⁹ بل ويقول وبصفة المفارقة أنه قام في 17 أوت 1845 بقتل واختطاف 250 شخص من قبيلة صبيح ونهب 1.000 رأس من الماشية وقام بتدمير المنازل والقرى ونهب مخازن الحبوب وقام باحتلال واد الفضة ونهبها"¹⁰.

لقد كان سانت آرن ويقيم هذه المآزير أشباعاً لرغباته، فتجرد من إنسانيته وهذا ما تضمنته رسائله التي بعثها حسب فرنسوا في كتابه "رسائل الجنيرال

سانت آرنو" عن تلك الجرائم الإجرامية التي كان يصفها بالمآثر الحربية فحتى عائلته كانت تمجد أعماله العسكرية بدليل احتفاظها برسائله من باب الافتخار باعتبارها تشريف للعائلة وكذلك من خلال مؤلف كتال لبيين "سانت آرن وحسب مراسلاته الوثائق غير المنشورة وسنوات الشباب" يقول "عن مجزرة صبيح والتي كانت بتأكيد من الجنيرال بيج و:" أغلقنا كل المنافذ وجئنا بالحطب وأشعلنا النار كان الوقت صيفا، ولم نترك أحدا يخرج من المغارة، كنا نطلق النار لنجبرهم على البقاء داخلها وبعد ساعات صار المكان مقبرة جماعية مرعبة حقا"¹¹. سانت آرن وهذا الذي بدأ مهامه في الجزائر كضابط صغير ونظير قيادته للطابور الجهني في العديد من مناطق الجزائر أصبح وزيرا للحربية 1851م خلال فترة حكم نابليون الثالث.

كما قام لاموريسيير La Moricière (1806-1861) بحملة ضد قبائل بني عامر فهبت مطاميرهم وفي سنة 1845 طردت القبيلة إلى المغرب الأقصى بسبب مشاركتها في مقاومة الأمير عبد القادر وصودرت أراضيها ومنحت للاستيطان الرسمي، إذ لا يختلف لاموريسيير عن لُلوب بيج والقمعي الإجرامي بل ولقد مكنته المكاتب العربية من إتباع رغباته وميولاته في حبك الدسائس والمؤامرات فكان من أشد أعداء الأمير عبد القادر، قاد العديد من الحملات من ذلك الحملة على بني شقران بمعسكر 15-12-1835، وكثرت غاراته على منطقة فليتا 1843 بغليزان دائرة مستغانم تصريحاته الإجرامية جمعها ايميل كالار Emil Kaller تحت عنوان:

Le Général dde la Moriciere sa vie militaire et religieuse.

من ذلك أن لا موريسيير تابع قبيلة فليتا حيث يوجد بها 1.000 خيمة تضم 6.000 إلى 7.000 فردا وقطعانا من الأغنام فقام بتكبييل أفرادها. وأخذ منهم 100 ثور و500 من الأغنام و20 حصان"¹².

لقد أدت عمليات الإبادة إلى تهجير الكثير من الجزائريين إلى البلاد الإسلامية هروبا من المجازر وحفاظا على دينهم، ذلك على هدف الاستعمار من سياسية التهجير هو التخلص من فكرة الجهاد وتهيئة الوضع للمشاريع الاستيطانية،

يقابلها رغبة هؤلاء الجنيرالات تنفيذ مشروع احتلال الجزائر وتنصير شعبيها تخليدا للقديس أوغسطين وسان سيريان، فأثناء هجوم بيج وعلى منطقة بوفاريك أختطف 250 طفل وقدمهم إلى البابا بروم و Brumauld قائلا له: "أنهم يتامى تم خطفهم فاجعلوهم مسحيين".¹³ بيج والذي تضمنت تصريحاته ما كتبه Goultier عن لَماله الإجرامية.

Le lieutenant général Bugeaud, Mémoire de notre établissement la province Oran Juillet 1837, Im -L.P- Royal par L'art Militaire, Paris 1939.

هذا الأخير الذي حسم سياسته بالسيف والمحراث أو بالأحرى "الجندي الفلاح" صاحب سياسة الأرض المحروقة "Politique de terre brûlée".

ومن بين المجازر التي هزت المجتمع الجزائري والرأي العام الفرنسي وكان الفاعل هو والعقيد بيليسي Pellissier (1794-1864) حين أقدم على حرق قبيلة أولاد رياح بالظهرة بغار الفراشيح من 18 إلى 19 جوان 1845 وهذا بموافقة الماريشال بيجو وتحت مسؤوليته رغم ما قدمه الفارون من أموال مقابل حياة أطفالهم ونسائهم إلا أنه رفض وأشعل الحطب عند المداخل ومنع كل من يحاول الخروج من المغارة بإطلاق الرصاص عليه مما أدى إلى اختناق وإحراق 760 جزائري من قبيلة أولاد رياح.¹⁴

جاءت هذه المجازر تنفيذا لأوامر الماريشال بيجو (1841-1847) الذي وجه العقيد بيليسي بالأمر التالي: "أوروليون في 11-06-1845 إذا انسحب هؤلاء الجراء إلى مغاراتهم فعليك أن تقلد (كافينياك) في السبيعية، دخنهم إلى الحد الأقصى مثل الثعالب".¹⁵

أحدثت المجزرة ضجة في فرنسا ولما طلب من الماريشال بيج والتفسير من طرف الماريشال سولت رد قائلا: "إني آسف يا سيدي الماريشال لأنك ظننت من الواجب أن تلوم بدون تلمظ سلوك السيد بيليسي. .. وقد قلت لك سابقا إنني أتحمل مسؤولية فعل فعل السيد الكولونيل بيليسي. .. ينبغي أن نعطي الجمهور أفكارا أصح عن ضرورة القيام بأعمال قاسية لإتمام خضوع

البلد خضوعا حقيقيا.. وقد برهنت آلاف الأمثلة أنهم لا يرضون بقانوننا إلا بالقوة¹⁶."

وهذا يفسر أن الضباط من خلال الجرائم المرتكبة لم يكونوا يتعرضوا للمساءلة والعقاب.

-الخاتمة:

علق مصطفى الاشراف عن السياسة القمعية الفرنسية في الجزائر التي انتهجها هؤلاء الجنيرالات "هو الحرب من أجل الحرب وصارت هواية لا واجبا، وأصبح القتال مهنة كغيره من المهن الأخرى وذريعة لشن حرب الإبادة"¹⁷.

هي الأعمال الإجرامية التي تعكس شخصيتهم القاسية ما يؤكد جشعهم وحجمهم للتوسع وكسب الشهرة على حساب رؤوس الجزائريين التي طلماراهنوا عليها في لعبة قذرة... طلبا للأوسمة والرتب العسكرية وحتى السياسية، حرب غير متكافئة ضد شعب أعزل لم تراع فيها أخلاقيات القتال ومبادئ الثورة الفرنسية هي الجرائم التي لم يعاقبهم عليها القانون... إلى اليوم وهي محل تمجيد وافتخار.

نتسأل أين ذهبت القوانين العسكرية حينها...!!! وأين هي مبادئ الثورة الفرنسية وأين هو البرلمان الفرنسي الذي طالما وقف فيه الجنيرال بيج و Bugeaud مدافعا عن جرائمه وجرائم زبانيته من أمثال السفاح سانت ارنو والمجرم بيليسي من مرتزقة الحرب ضد الشعب الجزائري الذي طالما اعتبروه شعب من الدرجة الثانية يجوز فيه القتل والنحر والحرق... وكل هذا باسم المدنية التي تعني الهمجية في جيش من الصعاليك والمجرمين والناهبين والسراق بشهادة لوسيان ومونتانيك.

-الهوامش

- 01- محمد، رزيق، الجرائم الفرنسية، شهادات واعترافات أكبر قادة وضباط فرنسا وخبرائها العاملين في الجزائر خلال الفترة 1830-1871، ط1، 2014، دار قطبة، ص: 261.
- 02- Pélissier De Reynaud ; Annales Algériennes, T01, Paris: 247.
- 03- بن زيان، سعدي، جرائم فرنسا في الجزائر من الجنرال بيج إلى الجنرال أوساريس، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2002، ص: 22.
- 04-Michel Habart , Histoire d'un parjure, Edi ,Anep ,2002, P:62.
- 05-Lugraud (le maréchal): Ouvres militaires, Libraires militaires de L. Baudoin, Paris 1883, P: 221-222.
- 06-Alexis, De Tocqueville, Travail sur l'Algérie 1841 d colonisation en Algérie , Bruxelles, Ed, Complexe,1988,P: 30
- 07-Yacono,Xavier, Histoire de L'Algérie, Edi, d'El atlantropes, France 1993, P: 73.
- 08-Demont, Histoires de la conquête de l'Algérie de 1830-1847, Ed ,Lery, Paris 1858, Pp: 82.
- 09-Arnand(S), Lettres du Maréchal de Saintes – Arnand 1835-1845, Ed, Lerrey, Paris 1858 ,Pp ,390-392.
- 10-Q, Lépine, Le Maréchal Saint-Arnand D'après sa correspondance et inédits années de jeunesse la conquête de l'Algérie 1798, 1850, P: 364.
- 11-Ibid, P: 353.
- 12-Emile, Kaller ; Le Générale De La Moriciere sa vie militaire et religieuse, T: 01, Rene Libraire, Edition, Paris, 1874, P: 42.
- 13-J.Poujoulatn Etudes Africaines, Tom02, Comptoir des imprimeurs Unis , Paris 1847, Pp: 172-173.
- 14- P. Christain, L'Afrique Française l'Empire du Maroc et les désert du Sahara , Publier par A.Barbier , Editeur 1846, P: 442.
- 15- روجي غرودي، حول الحضارات، تر، عادل عوا، عويدات للنشر والطباعة بيروت 1999، ص 65.
- 16- نفس المرجع، ص 66.
- 17- مصطفى، الأشرف، الجزائر الامة والمجتمع، تر، حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 106.